المقالة الرابعة

علم أبي العلاء

١

تمثل لنا المقالة الثانية درس أبي العلاء للعلم في جميع أطوار حياته، فنرى انه لم يجلس مجلس التلميذ من استاذ الا في طور الصبا ، وانه لما شب أخذ في قراءة الكتب وزيارة المكاتب بأنطاكية وطرابلس، فلما بلغ السادسة والثلاثين رحل الى بغداد ، فزار مكاتبها ، وجالس علماءها وأدباءها ،ومن كان فيها من الفقهاء والفلاسفة، مجالسة الند للند، لا مجالسة التلميذ للاستاذ ، ثم رجع الى المعرة فاشتغل بالتعليم والتأليف نيفاً واربعين سنة . فهذه الخلاصة تنتج لنا أمرين : أحدهما ، ان العلم هو الذي ملك حياة أبي العلاء ، واستأثر بها في أطوارها الثلاثة . الثاني ، انه اعتمد على نفسه في تحصيل علمه اكثر مما اعتمد على الاساتذة والشيوخ ، ويؤيد هذا أنا لا نعرف له من الاساتذة الا أباه، ومحمد ابن سعد ، في اللغة . ويحيي بن مصير في الحديث . وانه لا يحدث اذا كتب ، ولا يروى عن غيره من الاساتذة الذين يمكن ان يكون

قد سمع عنهم . وإنما يكتب كتابة رجل قد وثق بنفسه ، وربما نقل عن الكتب ، كما ترى في رسالة الغفران . وتمثل لنا المقالة الثالثة تأثير هذا الدرس الطويل في آداب أبي العلاء .ومع ان هذا التأثير ظاهر في مظاهر مختلفة ، فليس يعنينا من هذه المظاهر الا اثنان : الاول كثرة الاصطلاحات العلمية في شعره ونثره.والثاني اصطباغ اسلوبه الادبي بالصبغة العلمية ، حتى احتاج الى ان يفسر بعض ما وقع في شعره من الالفاظ على طريقة المؤلفين ، كما بينا ذلك عند الكلام على اللزوميات . فهذان المظهران يدلانا دلالة واضحة على ان القوة العلمية كانت شديدة في نفس أبي العلاء

فنون التي أتقنها

٢

غير ان هذا الاجمال لا يكفي في تصوير قوته العلمية ، فلا بد لنا من ان ننص على ما درس من الفنون ، مستعينين على ذلك بما ترك من الآثار الادبية ، ومن اسماء الكتب التي ألفها ، وان كان المؤرخون لم يخلوا بهذا الموضوع ولم يلتفتوا اليه

العلوم اللغوية هي أظهر الفنون التي درسها أبو العلاء ،فهي التي أمدت شعره ونثره بالغريب ، واصطلاحات العلم . وهي التي انفق أيام عزلته في درسها للناس ، وهي التي تخرج عليه فيها التلاميذ النابغون

والف فيها الكتب الضخمة . وقد كان ظاهر النبوغ في النحو فألف فيه أكثر من ستة كتب ، وامتلأت باصطلاحاته اللزوميات ، وسقط الزند ، والرسائل ، ورسالة الغفران . وكذلك في العروض فقد الف فيه كتباً أخصها جامع الاوزان ، الذي فصل فيه ضروب الشعر وقوافيه ، ومثل لها باشعار نظمها ولم يروها عن غيره ، وتبلغ هذه الاشعار تسعة آلاف بيت ، كما حدثنا في ثبت كتبه

ومقدمته التي بدأ بها اللزوميات . واستطراداته التي ملأ بها كتبه الادبية تمثل لنا مقدرته في العروض أحسن تمثيل . فاذا قرأت رسالة الغفران ، عرفت مقدار حذقه في استظهار الغريب وتحقيقه ، وحفظ ما كان بين العلماء من الاختلاف في الفاظ وردت في الشعر القديم ، وأنواع من الاعراب والتصريف روى عليها هذا الشعر .

ولقد استطرد في رسالة الغفران الى بيتين ، قالهما النمر ابن تولب وهما :

ألم بصحبتي وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهي عسلا مصفى اذا شاءت وحواري بسمن

فاستطرد منهما الى قصة كانت بين خلف الاحمر وأصحابه ، ملخصها : ان خلفاً قال لاصحابه : لو انه وضع أم حفص موضع أم حصن ما كنتم تقولون في البيت الثاني ؟ فسكتوا ، فقال خلف :

(وحواري بلمص) واللمص: الفالوذج. قال أبو العلاء ويفرع على هذه الحكاية فيقال: لو كان مكان أم حفص أم جزء وآخره همزة ما كان يقول في القافية؟ فانه يحتمل أن يقول: وحواري بكشء. من قولهم. كشأت اللحم اذا شويته حتي ييبس، ويقال. كشأ الشواء اذا اكله، أو يقول. بوزء. من قولهم. وزأت اللحم اذا شويته، ولو قال. حواري بنسء، لجاز. وأحسن ما يتأول فيه أن يكون من نسأ الله في أجله. أى لها خبز مع طول حياة، وهذا احسن من أن يحمل على ان النسء الكثير المال، وقد قيل: ان النسء الخمر، وفسروا بيت عروة بن الورد علي الوجهين

سقونى النسء ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

ولو حمل حواري بنسء على اللبن أوالخمر لجاز بأنها تأكل الحواري بذلك. أي لها الحواري مع الخمر. وقد حدث محدث انه رأى ملك الروم وهو يغمس خبزاً في خمر، ويصيب منه. ولو قيل. حواري بلزء. من قولهم. لزأ اذا أكل، لما بعد. ولا يمكن أن يكون روى هذا البيت الفاً، لانها لا تكون الا ساكنة، وما قبل الروي ههنا ساكن فلا يجوز ذلك ... ثم مضى أبو العلاء في الاستطراد الممل حتى أتى على حروف المعجم كافة. وهنالك عاد الى ما كان أخذ فيه: من موضوع الرسالة

فهذه القصة تظهرك على حظ أبي العلاء من الغريب وروايته ، وقدرته على الفقه به ، والتأول فيه ، كما انها تظهرك على مقدار ما كان له من الصبر الشديد على البحث ، والاستقراء . وليس هذا كله الا نتيجة تأثره بذلك القانون الفلسفي الذى أخذ نفسه به يوم رجع من بغداد

أبو العلاء كان كما قدمنا في المقالة الثالثة ـ شديد النقد في اللغة والعروض ، دقيق الملاحظة . وليس أدل على ذلك من هذه المحاورات المسئمة التى أجراها بين على بن قارح وبين الشعراء : من أهل الجنة والنار . فمن ذلك ما كان من المحاورة بين علي بن قارح هذا وبين لبيد في الجنه ، اذ يقول : اخبرنى عن قولك

تراك أمكنة اذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معني كل ؟ فيقول لبيد . كلا ، انما أردت نفسي وهذا كما تقول للرجل : اذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا ، وأنت تعني نفسك في الحقيقة ، وظاهر الكلام واقع على كل انسان وعلى كل فرقة تكون بعضاً للناس ، فيقول — لافتىء خصمه مفحما — اخبرني عن قولك . او يرتبط . هل مقصدك اذا لم أرضها او لم يرتبط أو غرضك اترك المنازل او يرتبط ، فيكون يرتبط كالمحمول علي قولك : تراك أمكنة ؟ فيقول لبيد : الوجه الاول.

أردت . فيقول ـ عظم الله حظه في الثواب: فما مغزاك فى قولك

وصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتاله إبهامها !

فان الناس يروون هذا البيت على وجهين . فمنهم من ينشده تأتاله ، يجعله تفتعله من آل الشيء يؤوله اذا ساسه، ومنهم من ينشد تأتاله من الاتيان ، فيقول لبيد كلا الوجهين يحتمله البيت ، فيقول ـ أرغم الله حاسده ـ ان أبا على الفارسي كان يدعي في البيت أنه مثل قولهم استحى يستحي على مذهب الخليل وسيبويه ، لانهما يريان أن قولهم استحيت انما جاء على قولهم استحاي كما أن استقمت على استقام . وهذا مذهب ظريف ، لأنه يعتقد أن تأتي مأخوذة من أوي كأنه بنى منها افتعل ، فقيل ائتاي ، فاعلت الواو كما تعل في قولنا . اعتان . من العون، واقتال . من القول ، ثم قيل . ائتيت فحذفت الالف كما يقال . اقتلت ، ثم قيل في المستقبل . يأتي بالحذف كما قيل يستحي فيقول لبيد . معرض لعنن لم يعنه ، الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف

فانظر الى دقة ملاحظته في التصريف ، والاشتقاق . على أن عامة نثره لايخلو من مثل هذه الدقة في النحو، والصرف، والاشتقاق والعروض ، والغريب . ومن هنا تتبين مقدار درسه وروايته وحظه من التحقيق العلمي . ولقد بينا في المقالة الثالثة أن التحليل

الدقيق لآداب أبي العلاء يرد كثيراً منها الى آداب العرب الجاهليين والاسلاميين . فهذا يدلك أيضاً على مقدار ما كان يحفظ: من الشعر والنثر ، ولا سيما اذا لاحظت قوة ذاكرته ، وجودة حفظه . وقد أتقن أبو العلاء فن التاريخ كما تحدثنا بذلك آدابه ، وكما حدثنا هو في اللزوميات في قوله :

مامرّ في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف

أما العلوم الفلسفية، فاللزوميات،ورسالة الغفران يدلانا على أنه قد اتقنها ، وحذق فيها علماً وعملا ، وان كان لا يضع فيها كتباً على طريقة المعلمين من الفلاسفه . وقد ذكروا . أنه روى شيئاً من السنة ، وقدمنا الاشارة الى ذلك فى المقالة الثانية ، وتدل عليه رسالة الغفران لما روي فيها من الحديث . ولا شك في أنه قد درس من الفقه مقداراً غير قليل ، كما تدل على ذلك الاصطلاحات الفقهية المنثرة في آدابه ، والمحاجاة التي كانت بينه وبين أبي الطيب القاضى الشافعي حين قدم بغداد كما قدمنا . ومما لا يحتمل الريب انه قد اتقن القرآن ، وعلومه كما تشهد بذلك آدابه . وكتابه الذي سماه تضمين الآي ، وان لم يصل الينا فانه قد حرص فيه على أن يأتي بطائفة من المسجع يختم كل فصل منها بآية مقتبسة من القرآن

ثقته بنفسه

٣

لاشك في أن أبا العلاء كان ثقة حجة في العلم ،لجودة حفظه وقوة فهمه ، وانه لم يتهم بكذب ، ولم يطعن عليه بتدليس .وقد كان الرجل يرى فى نفسه هـذا الرأي ، فيثق بها فيما يحدث ويكتب. وقد بينا أنه لم يعتمد فى الدرس علي المشافهة ، فقدأثرت هذه الطريقة فى سيرته العلمية ، فقرأ عليه التبريزى كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت ، فلما أتمه طالبه بالسند كما جرت بذلك العادة في عصره. فقال له ابو العلاء : ان كنت تريد العلم فخذه عني ، ولا تعدني ، وان كنت تريد الرواية فاطلبها عند غيرى. قال القفطى : فهذا يدل على أن أبا العلاء كان يثق بنفسه ، ويعتقد انه أدرك اللغة ، وانها في عصره لأنضج منها في عصر ابن السكيت

عنايته بآثاره

٤

أخص مايلاحظ في الحياة العلمية لأبي العلاء ، انه كان شديد الحرص على علمه وأدبه ، كثير العناية بآثاره فيهما ،يجمعها ويفسرها ويناضل عنها ، وقدمنا تعليل ذلك في المقالة الثالثة : ونقول الآن : انك لاتكاد ترى كتاباً ألفه أبو العلاء من غير أن يكون قد ألف

له شرحاً ، أو تفسيراً ، فقد شرح سقط الزند ، وشرح اللزوميات بكتابين ، ودافع عنها بثالث ، وشرح الفصول والغايات بكتابين أيضاً ، وشرح الايك والغصون ، وشرح الرسائل بكتاب سماه خادم الرسائل ، فهذا يمثل لك مقدار حرصه على آثاره ، واحتفاظه بها . ومصدر هذا أمران : أحدهما أن الرجل كان معترفاً بنفسه مكبراً لها ، فلا يرضى أن تترك آثارها ناقصة ، محتاجة الى أن يكملها الناس . الثاني انه كان يخشى التأول وكثرة الكذب عليه ، فيعمد الى كلامه فيجليه ويشرح أغراضه فيه . ولكن هذا الغرض قد فاته ، فضاع اكثر كتبه ، وعاد أمره من الشك والالتباس الى ما كان يخاف

كتبه

٥

روي ياقوت ، والقفطي ، والصفدي ، والذهبي ، ثبتاً لما ألف أبو العلاء : من الكتب المنظومة والمنثورة في العلوم والآداب. ولكن النذر اليسير من هذه الكتب هو الذي بقي لنا . فأما اكثرها فقال القفطي والذهبي : انه باد ولم يخرج من المعرة ، وانما أتى عليه تخريب الصليبيين لها ، وتحريقهم لما فيها ، وقد أحصوا هذه الكتب ، فاذا هي خمسة وخمسون كتاباً في اكثر من أربعة

آلاف كراسة ، تتناول اللغة وفنونها ، والأدب وألوانه ، والوعظ وأنواعه . وكثير من هذه الكتب لم يكتبه أبو العلاء الا حين طلبه منه بعض الناس ، ومنعه الحياء من رده . وقد يسر لأبي العلاء رجل يعرف بالشيخ أبي الحسن على بن عبد الله بن أبي هاشم ، فكتب عنه ما أملى من غير أن يقتضي على ذلك أجراً ، فشكر له ذلك أبو العلاء في أول الثبت الذي وضعه لكتبه ، والف لابنه كتابين . أحدهما سماه المختصر الفتحى ، والآخر سماه عون الجمل ، وهو آخر ما أملى من الكتب كما نص على ذلك ياقوت . ولقد نود لو نستطيع أن نبحث عن هذه الكتب ، ونصفها وصفاً مستقصي ، ولكن الدهر قد أبى علينا الظفر بهذه الأمنية ، فأضاع اكثر هذه الكتب ، ولم يبق منها الا ماقدمنا وصفه في المقالة الثالثة

ذوق فى تسمية الكتب

٦

ولئن فاتنا أن نصف هذه الكتب فلن يفوتنا أن نصف ما بقي منها وهى الاسماء فلا شك في أنها تدل على مزاج معتدل ، وذوق رقيق ، فانظر : كيف سمى شرحه لديوان أبي تمام «ذكرى حبيب» فأحسن التورية والاختيار ، وكذلك سمى اصلاحه لديوان البحتري «عبث الوليد»

وقد رأينا هذا الكتاب فاذا هو اصلاح نسخة بعث اليه بها بعض الرؤساء ، وفيه نقد لالفاظ جاء بها البحتري . ولأبي العلاء في آخره تأول ظريف في اسم الكتاب ، فانه قال : أما العبث فظاهر. وأما الوليد . فيجوز أن يراد به البحترى نفسه ، لانه اسمه ، ويجوز أن يراد به الناسخ ، لانه عبث بالكتاب . وسمى شرحه لديوان المتنبي «معجز أحمد» تورية بالقرآن. وسمى كتاباً آخر. «الايك والغصون» وقد زعموا أنه في مائة جزء ، وتحدث من رأى الجزء الاول بعد المائة منه ومن رأى بالمكتبة النظامية ببغداد ثلاثة وستين جزءاً من أجزائه . وعلى الجملة كان أبو العلاء محسناً في اختيار الاسماء ، كما يدل ما بأيدينا : من الكتب على أنه كان متقناً لتأليف المسميات